الأبعاد الأنثروبولوجيّة والثقافيّة للعولمة*

المؤلف: مارك إبليس ترجمة:

1 – العولمة كتجربة أنثروبولوجيّة: مهما فكّرنا في المجادلات حول الصفة المستجدّة أو غير المستجدّة للعولمة، نجد أنفسنا مجبَرين على تقرير أنّ ذاتنا في العالم توجد مباشرة موسومة بهذه الوضعيّة. لنستدع فقط إدراكنا الفطريّ للفضاء والزمن. حتّى في مستوى هذه الأشكال البديهيّة للإحساس، من أجل شرح تعبير كانت Kant الشهير، حصل شيء له سمة متعلّقة بحدسنا بالمسافة وبالتزامن. وهكذا بيّنه (دافيد هارفي) (David Harvey)[1]، إذ يقع تحوّل تمثيلنا للفضاء وللزمن أثناء فترة يموقعها بين اكتشافين لإنشتاين هما نظرية النسبية المحدودة (1905) ونظرية النسبية العامة (1916). إنّها فترة السلاسل الأولى للتركيب في مصنع فورد (FORD). تقسيم المهامّ وتجسّدها في الفضاء يضمن فعاليّة قصوى وسيولة كبرى لفيض الإنتاج. بفضل هذا التنظيم الفضائي، يحدث تسريع الزمن. إنّ أوّل إشارة إذاعة تمّ إرسالها في نفس الفترة من برج إيفل Effel يسجّل أيضا إمكانية تجاوز الفضاء. سلطة الاتصالات بدون سلك ظهرت بوضوح في نفس العام مع الشيوع السريع لنبإ غرق سفيتة الطيطانيك Titanic. أصبح يوجد منذ ذلك الوقت زمنا عموميّا متجانسا وشاملا يُستخدَم من خلال كلّ الفضاء. والثمانية وثلاثون مليارا من المكالمات الهاتفية التي جرت في الولايات المتحدة في 1914 عكست سلطة تدخل الزمن والفضاء العمومي في الحياة الخاصة.

وفي نهاية القرن العشرين، لم يعد في الإمكان فصل تكنولوجيات الاتّصال الجديدة عن تسارع عامّ لصيرورات اقتصاديّة واجتماعيّة، ولم تعد المسافة والزمن تشكّلان عوائق كبرى بفضل أقمار الاتصال الصناعيّة واللوح. أدّى تكثيف الترابطات البينيّة إلى إعادة تنظيم فعليّة للزّمنيّة ممّا سمح لأشخاص يتواجدون على مسافات معتبرة بأن يتقاسموا نفس التجربة. أمكن ملاحظة كيف أنّ أحداثا منقولة كبرى – وليكن الأمر متعلقا بحرب، مباراة كرويّة، أو حفل لموسيقى (الروك) (ROCK)- كان تلقّيها ممكنا معا في مختلف أنحاء الكرة الأرضية. نفس الشيء، التبادلات المالية أصبحت تُمارَسُ في وقت حقيقيّ بدون مراعاة بعد المراكز المعنية. حسب (هارفي) (Harvey)، هذا الانضغاط للفضاء-الزمن هو معطى أساسيّ للعالميّة. تقصير للزمن وتضييق للفضاء هما وجهان لنفس الظاهرة.

إنّ صيرورة تكثيف وتسريع مثل هذه تميّز الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة؛ تقع تماما في امتداد التحوّلات التقنية لبدايات القرن العشرين؛ ومع ذلك، تندرج في السياق الأكثر عموميّة لأزمة فَرْطِ التراكم الذي أصاب الرأسماليّة ابتداء من سنوات السبعينيات، والذي أوصل إلى قبول النموذج الجديد لإنتاج ما

بعد-الفورديّة post-fordiste. شوهد حينذاك نموّ نظام تراكم مرن. فالمرونة تفرض نفسها ليس فقط في محيط الانتاج؛ لكن أيضا في سير سوق العمل، في تصوّر المنتجات والنماذج. حسبما كتبه (هيرفي) (Harvey)، يُشَاهَدُ نموُ« قطاعات إنتاج جديدة تماما أساليب جديدة في تعويض الخدمات المالية، وفوق ذلك كلّه، تكثيف لمقادير التجديدات التجاريّة التكنولوجية، والتنظيميّة. »[2] وسمحت المرونة بتحسين رفع رأس المال بتسريع إنجاز الإنتاج والاستهلاك. فالتعهّد والنقل، بتشغيل تكنولوجيات مراقبة إلكترونيّة، هي وسيلة تحديد زمن رقم الأعمالturn-over لرأس المال. بفضل الطرق الجديدة في تبادل المعلومة وبفضل عقلنة طرق التوزيع، تنتقل السلع في السوق بوتيرة أسرع، فالخدمات المالية أصبحت تُؤَدَّى خلال أربع وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة.

ومن المؤكّد جدّا، أنّ المرونة تصيب أشكال الاستهلاك مع التتابع السريع للموضات. تكون الموضة عادة سريعة الزوال: ليس هناك مثل « دكتاتوريّة» الموضة من أجل تغذية مستمرّة لرغبة التجديد، فمن أجل جلب المستهلك نحو ألبسة، أشياء، ألوان موسيقيّة، ألعاب هي نفسها محكوم عليها بالتجديد سريعا. وهذه القابليّة لتبخّر الرغبة التي بلغت أوجّها في افْتِتَانٍ بـ «الأشياء سريعة الاستعمال» تتماشى مع عالم التراكم المرن. عالم يتطلّب صورا، تَمَظْهُرَاتٍ، حيث تسبق الإشارة وتغطّي على الواقعيّ. وهكذا يصف جان بودريّارد (Jean Baudrillard) ما بعد الحداثة كانتصار للسطحيّ، للصورة المتحرّكة: تسجّل أمريكا بالنسبة له « انتصار السطح والوضعنة الخالصة على عمق الرغبة»[3]. ومن جهته، يبرز (بول فيريليو) (Paul Virilio) في مؤلّفه جماليّات الاختفاء[4] مجتمعا حيث لم يعد الفضاء والزمن يمثّلان بعدين ملزمين بالنسبة للأفراد.

وما يستقطب انتباه المتخصّصين بخصوص جوّ ما بعد الحداثة، هي طبعا السيولة الترابطات، الشبكات. وكيف يمكن تصوّر إعادة صياغة العالم؟ يظلّ هارفيHarvey متعلّقا بشكل من التنظير يسند للبنية القاعديّة (أسلوب الإنتاج والتبادل) دور المحرّك الأوّل. فلأنّ الرأسماليّة كانت في أزمة وتمّ خلق أشكال جديدة من التنظيم (ما بعد الفورديّة) أصبحت المرونة هي القاعدة. أصبحت أساليب الحياة وتمثيلات العالم تصاغ في تحوّلات أكثر عمقا. نعثر هنا على تأويل ماركسيّ، تقليديّ جدّا إجمالا. قريبا من هذا يضع هارفي Harvey في مركز تأمّله شرط ما بعد الحداثة، وليس تحليل الرأسماليّة. إنّها التجربة الحديثة للزّمن في طور تشكّلها، يقدّمها لنا في صفحات مخصّصة للعمران، للفنون التشكيليّة وللآداب؛ حيث يهاجم العابر، المتشظّي، المنقطع، الفوضويّ، بالنسبة له ما يميّز ما بعد الحداثة، بقدر ما نجد ذلك عند بودلير Baudelaire نجده في هندسة الأبراج. وتجربة الزمن هذه والطريقة التي تنتهي بها في وسم الفضاء وعلاقتنا بالمدينة لا تنفصلان عن العولمة. في نفس الوقت، يُفْهَمُ أنّها لا تُخْتَزَلُ فقط في حتميّة تقنية اقتصاديّة وأنّ النظريّات التي تركّز قبل كلّ شيء على تحوّلات الاقتصاد تسدّ الطريق أمام نواح جوهريّة.

من المؤكّد أنّ كلّ ذلك صحيح. يذكر عالم الاجتماع أنثوني جيدّنس (Anthony Giddens)[5] كثافة العلاقات الاجتماعيّة على سطح الكرة الأرضيّة ويلحّ على تمدّد (stretching) العلاقات ما بين الوقائع المحلّيّة والوقائع البعيدة. هذا التموقع للمحلّيّ في الشبكة بالنسبة له هو المظهر الأساسي للعولمة. يشهد على ذلك، من بين أشياء أخرى، أنّ الرخاء المتزايد لمنطقة عمرانيّة في سنغافورة Singapour يكون في علاقة سببيّة، عبر شبكة معقّدة من علاقات اقتصادية شاملة، مع ما يصيب منطقة بيتسبورق Pittsburgh من فقر. حيث قد يكون بفعل التعرّض لتبعيّة بينيّة أثر مأساويّ على الحياة عندما يؤدّي إلى إلغاء مناصب عمل. لقد تمّ، منذ الآن فصاعدا، القضاء على المسافة الزمنيّة والتفاوت فيها، بفعل التدفّقات القصوى.

إنّ ما يميّز العالم الحديث، هو الحركة، أكثر طبعا من البنيات والتنظيمات المستقرّة. تشهد على ذلك تنقّلات البشر، وأيضا النموّ الخارق للعادة للاتصال الجماهيري، عن طريق الصور العابرة لمختلف أصقاع الكرة الأرضيّة. ومن وجهة نظر أنثروبولوجيّة يمكن تعريف العولمة باعتبارها تسريعا لتدفّقات رأس المال والكائنات البشريّة والسلع والصور والأفكار. أنتج هذا التكثيف للتفاعلات والترابطات البينية علاقات تتجاوز الحدود الجغرافية والسياسية التقليدية. نفس الشيء أوصل« تمدّد » أطر الفعل إلى خرق حدود حتّى الأماكن الأكثر هامشية. فالصورة الذائعة الصيت للقرية الكونيّة لماك لوهان McLuhan يجب أن تفهم في معناها الدينامي: فالوعي الْمُعَوْلَم، قبل كلّ شيء، هو التبعيات البينية، التي تَبْنِي، رغمًا عنّا، وَعْيَنَا بالكون.

لقد كان الفرد قبل الآن يعيش ويفكّر ضمن حدود معيّنة. انطلاقا من مجرّد وجهة نظر جغرافيّة. وكانت الدولة الوطنيّة تمثّل مرجعا مستقرّا: في محيطها، يتّخذ البعد المحلّي أهمّية خارقة للعادة، مانحة لأعضاء المجتمع نقطة تجذّرهم الْمُفَضَّلَة. وفي هذا السياق، كانت البنيات الهويّاتيّة تُنْتَجُ في لعبة تقابل دائمة بين الذات والآخر، بين الداخل والخارج. إذ أنّ الهجرات، من ناحية، تدفّقات الوسائط العامّة؛ ومن ناحية أخرى، كسروا النظام القائم حينذاك. كما يقترح (أرجون أبادوراي) (Arjun Appadurai)، هذه الوضعيّة لا تعدّل فقط الحياة المادّيّة للبشر، لكنها تنزع نحو منح دور غير مسبوق للمخيّلة[6]. وليس معنى ذلك أنّ المجتمعات السابقة لم تستدع بصفة واسعة، في إنتاجاتها المنهجيّة والأدبيّة أو الفنّيّة هذه الكفاءة؛ لكن منذ الآن فصاعدا لم تبق المخيّلة محدّدة بمجالات تعبير مخصوصة. لقد سيطرت على الممارسات اليوميّة، خاصة في وضعيّات الهجرة أين الناس مضطرّون لأن يبتدعوا في المهجر عالما خاصّا بهم، مستعملين جميع الصور التي توفّرها لهم الوسائط.

2 – الأبعاد الثقافيّة للعولمة: يمكننا إذن أن نتساءل إن لم يكن من الأهداف الرئيسيّة للمشروع الأنثروبولوجيّ تمثّل الأبعاد الثقافيّة للعولمة. وهذا لا يتطلّب فقط تموقعا لمختصّين يأتون لكي يكملوا معرفتنا بالنواحي الاقتصاديّة للظاهرة بمساهمة متمحورة على الثقافة. ويتعلّق الأمر بالأحرى ببيان أنّ

البعد الثقافي هو في مركز الصيرورة، نظرا للمكانة التي تشغلها اليوم مخيّلة العولمة. ومع نتائج لم تكن متوقّعة، ظلّ خلال مدّة طويلة منظّرو الحداثة وناقدو الثقافة الجماهيريّة يطرحون حتمية دنيويّة العالم، المضفاة أكثر فأكثر على العقلانيّة العلميّة، تمّ التحقّق من أنّه على العكس من ذلك جعلت الوسائط من إعادة استعمال المخيّلة الجمعيّة من جديد أمرا ممكنا. وتشهد حركات اليوم الدينيّة، من بين أشياء أخرى، على هذا البحث عن تساميّات جديدة. أضف إلى ذلك، انتشار الصور التي من الممكن أن تبدو غير لائقة تماما بالنسبة لمن يتلقّاها هي أيضا ذريعة لصيغ في التملّك حيث تتجلّى إبداعيّة معتبرة. وهذا في انتعاشها بفعل تدفّق الصور وبعيدا عن الوقوع تحت تأثير فضاضة غلاة منتقدي الحداثة، تجد المخيّلة آفاقا جديدة. بفضل صور الفيديو، تعطي جماعات المهاجرين معنى لتجربتها، تتشكّل في كيانات جماعيّة في محيط غريب. ما علينا سوى ملاحظة التجارب الجمعيّة المرتبطة بالوسائط والطريقة التي تتشكّل بها عامّة الجمهور حول زعيم كارزمي، أو حول أحداث رياضيّة تهمّهم مباشرة حتّى وإن كانوا يعيشون بعيدين بآلاف الكيلومترات. كمثال، هذا المسلسل في حلقات الذي تتم مسرحته بصفة كبيرة والذي يتمثّل في كأس العالم لكرة القدم، المتابَع بحماسة من قِبَلِ الجمهور في كلّ مكان على سطح الكرة الأرضية. ولا تختلف عن ذلك رياضات أخرى، كما تشهد هذه المباراة للعبة الكركت cricket الشهيرة بين هنود وباكستانيّين في كأس أسترازيا Austrasia التي جرت في إمارة الشارقة سنة 1996 وقد جنّدت خمسة عشر مليون متفرّج، من بينهم طبعا مواطنو الفرق المتنافسة، الموزّعين عبر العالم[7].

هناك تدفّق وترابط بينيّ كان من نتائجهما أيضا صنع ما مثّل بالنسبة للإثنولوجي، <<فلكيّ المجرّات البشريّة[8]>>، وشيء لا يعوّض: الخصوصيّات الثقافيّة. ألم تفضّل الأنثروبولوجيا على الدوام دراسة ماهو خصوصيّ، ما يميّز ثقافة ما نظرا لتجذّرها في الأرض والتاريخ؟ شيوع رؤية نسبيّة تنكر كلّ شكل من أشكال الإثنية المركزيّة، خاصة تلك التي تتأسّس على <<تعال>> ضمنيّ للثقافة الغربيّة، هي من خصائص المقاربة الأنثروبولوجيّة. على قدر ما يقال من أنّ الأنثروبولوجيّين متحمّسون للاختلاف، هم دوما يبحثون عن الأصيل، يجدون أنفسهم يُوَاجَهُونَ بواقع موسوم بصيرورات استئصال واجتثاث من الأوطان.

تؤثّر الهجرات في العمق على عوالم ثقافيّة كانت الحدود بينها تبدو وكأنّها غير قابلة للخرق. هل يمكن الحديث فقط عن اجتثاث ثقافي؟ لأنّه إذا ما كان التدفّق حادثا ما بين مختلف القارّات، يبقى التساؤل إذا ما كان لا يشتغل في اتجاه وحيد. فالأمثلة المذكورة دالّة، إلى حدّ يسمح لنا التوصّل إلى وجود نشاط موجّه توجيها واحديّا من المركز (الولايات المتحدة) نحو الأطراف: كتب أولف هانّرز Ulf Hannerz:<<شيئا فشيئا، ثقافة الأطراف تتمثّل أكثر فأكثر الدلالات والأشكال المستورَدة، لتصبح بالتدريج أقلّ اختلافا عن ثقافة المركز[9].>> هذا الانمحاء الذي يصيب الاختلافات مرادف لتجانس متنام.

لقد أصبح ماكدونالد McDonald's وديزني Disney رمزين لهذه الإمبرياليّة التي تسعى إلى توحيد التعبيرات الثقافيّة. هل يمكن القول حينئذ بأنّ العولمة تتلخّص في مجرّد هيمنة خالصة؟

تؤثّر العولمة في المجتمعات في إعادة رسم الفضاء الاقتصادي الكوني وتَجْلِيَةِ سُلْطَاتٍ؛ تندسّ أيضا في حياتنا اليومية عن طريق تناقل الصور، أشياء استهلاكيّة، تناقل لا تقف في وجهه الحدود ولا المسافات. تبادل معمّم، كان من نتائج اقتصاد السوق كونه، يسمح بتقاسم نفس الانجذاب نحو أنماط من الغذاء، من اللباس أو من الموسيقى. هذا هو ما يشهد على تغيير في العمق. فالسكّان الأستراليّون الأصليّون أصبحوا يتابعون مسلسلات شمال-أمريكيّة، وكوكاكولا أصبحت إلى حدّ كبير مشروبا شعبيّا في إفريقيا كما في الصين أو في الولايات المتحدة؛ حتّى أنّه أصبح في الإمكان تناولها في قرى إفريقيّة أو في القطب الشماليّ؛ أصبحت مطاعم ماكدونالد McDonald's تلقى نفس النجاح في أمريكا العميقة وفي شنغاي – أصبح هذا لا يدهش أحدا. أكثر من ذلك، هذا النسق في الاستهلاك أنتج نوعا من الفضاء« غير المعيّن» الذي يميّز حسب (مارك أوجي) (Marc Augé)[10] الحداثة الْمُتَجَاوَزَة »، بمساحاته الكبيرة، مطاراته، محطّات خدماته، سلاسله الفندقيّة. كتب يقول: "الأماكن غير المعيّنة تخلق التعاقدية الإفراديّة[11] في نفس الوقت، تشكّل عالما مشتركا حيث يمكن لكلّ واحد أن يجد ما يخصّه من مؤشّرات، مهما كان بعده عن موطنه الأصليّ.

وهل يمكن الحديث بالنسبة لهذا الموضوع عن شكل جديد من الثقافة التي تفرض نفسها تدريجيّا، متجاوزة الحدود ودون أن تمسّ الهويّات والتجذّرات في الأرض العزيزة على الأنثروبولوجيا التقليديّة؟ على العكس، هل هناك خطر بالزوال يبقى قائما، يسير نحو مجانسة غير مستساغة تسير نحو القضاء نهائيّا على ما صنعته الحضارات، في تنوّعها، من أشياء لها قيمتها؟ هذه الأسئلة تحتاج إلى الطرح في عصر تناضل فيه شعوب في سبيل حفظ تراثها وحيث مفهوم الاستثناء مثارا في أوروبا بغرض الدفاع عن بعض القطاعات مثل السينيما في مواجهة تدفّق إنتاج ثقافيّ غزير.

عندما تثار المسألة الثقافيّة، من الواضح أنّ القضيّة تتعلّق بنقاش سرعان ما يتّخذ بعدا سياسيّا ويستدعي على الدوام شيطنة للآخر ذات أشكال متطوّرة إلى حدّ ما والتي لا تتوقّف عند إدانة إمبرياليّة الثقافة الجماهيرية ذات السمة الأمريكيّة؛ بل تتزعّم مقاومة المقهورين من كلّ الأصول في مواجهة هذا الغازي الذي ما انفكّ يفرض مسلسلاته التلفزيونيّة، أفلامه الهليوديّة أكلاته الجاهزة وأحذيته الرياضية المصنوعة بأثمان رخيصة من قبل شعوب وقع استغلالها بصفة مفضوحة. على جبهة الثقافة، هل انتصر بيغ بروثر (*Big Brother*) نهائيّا؟ ليس هناك من شكّ في أنّ إدانة الإمبرياليّة الثقافيّة تستند على أساس واقعيّ فعلا.في نفس الوقت، لابدّ من الإقرار أنّ أغلب المجتمعات لم تفقد شيئا من خصوصيّتها.

إنّ هيمنة الأكل السريع الموجود في كلّ مكان في العالم قادت (جورج ريتزر) (George Ritzer)[12] إلى الحديث عن« مكدونالداويّة» McDonaldisation المجتمع الذي لا يَخُصُّ تأثيرُها الإطعامَ فقط، لكن أيضا التربية، العمل والترفيه، الحمية الغذائيّة، العائلة وحتّى السياسة. يتعلّقُ الأمر بأسلوب استهلاك يفضّل الفعاليّة ويوفّر إمكانيّة سدّ حاجة أوّليّة باقتصاد أكثر للوقت وللنقود في نفس الوقت. فمفهوم « ماكدونالدز» McDonald's يشغّل عقلانيّة دقيقة جدّا. فكلّ شيء بالفعل محسوب، من طول قطع البطاطس إلى كمّيّة اللحم، بحيث يحصل الزبون على ما يقابل نقوده. على هذا الأخير أيضا أن يصرف أقلّ ما يمكن من الوقت، بحيث يتناول وجبته في أقلّ ما يمكن من الزمن. خصيصة أخرى لماكدونالدز McDonald's تتعلّق بالاستشراف: أين نحن في العالم، هل بالإمكان الحصول على نمط معين من الغذاء العائلي. أخيرا، صيرورة عمليّة الإنتاج تنزع إلى تحديد التكاليف باستدعاء تكنولوجيات تقلّص إلى أدنى حدّ الطاقات البشريّة المستخدمة.

وبخصوص نوعه، هذا النمط من الإطعام هو طريقة أخرى في تنفيذ ما قام بتجسيده بصفة مدهشة شارلي شابلان في الأزمنة الحديثة. نكون في زمن إعادة الإنتاجيّة[13]، يجد الزبون نفسه في جوّ عائليّ ولن يكون من حقّه سوى رفاه أدنى؛ لكي لا يتأخّر أكثر؛ ممّا قد يترتّب عنه تحديد مدخول هذا النمط من المؤسّسات. ماكدو، كما يقال بصفة حميمة، هو رمز لهذه الأشكال من الاستهلاك التي شاعت انطلاقا من الولايات المتحدة في العالم، فنالت نفس النجاحات في باريس، في موسكو أو في بيكين.

وفي قطاع آخر، نجح أداء ديزني في تغليب ذيوع إنتاجاته بين الأطفال وفي إقامة حضائر ترفيهية حتّى في أوروبا، له معه نقاط مشتركة. له نفس النزوع نحو عقلنة صيرورة عملية الإنتاج، الحدّ الأقصى من الفوائد والذيوع بين الملايين من الزبائن، وتجاوز كلّ حدود الأوطان، ليس في الوجبة، وإنما في الصور التي تشكّل مخيّلة الناس المنتمين لأصول متنوّعة.

لم تقم الماكدونالدويّة McDonaldisation إلاّ ببيان أطروحة العولمة التي فُهِمَتْ على أنّها أمبرياليّة ثقافيّة ومجانسة لأساليب استهلاك و للمخيّلة على الصعيد الكوني غير مستساغة. تستدعي لذلك كلّه عددا من التحفّظات، كما بيّن جيمس ل.واطسون (James L.Watson) في كتاب مخصّص بالذات لتلقّي ماكدونالدز McDonald's في آسيا الشرقيّة[14]. يرجع واطسونWatson إلى أطروحة القرية الْمُعَوْلَمَة حيث تفرض هيمنة تتطلّب على الدوام اندماجا أكثر وتوحّدا من خلال أوليّة شبكات الاتصال والشركات العابرة للحدود الوطنية، إلى حدّ تقليص الأوطان في حضيرة ذات موضوع شامل ومتجانس، في« ماك وورلد» McWorld ضخم، حسب تعبير بنيامين باربر Benjamin Barber[15]). يوضّح إلى أيّ حدّ، في القارة الآسيويّة، يختلف تلقّي نسق ماكدونالدز حسب البلدان المستقبلة.

لم يكن انتشار نموذج الأكل السريع بسرعة قصوى مرتبطا حسب واطسون Watson بفرض نمط من الإنتاج المتماثل من بلد إلى آخر، لِيُطَبَّقَ نموذجٌ يُسَلَّطُ على جموع الناس المستهلكين بدون تمييز. على العكس من ذلك، يعود نجاحُه لمرونته الكبيرة، لقدرته على التكيّف مع وضعيات ثقافية مختلفة جدّا. يكفي

إلقاء نظرة على الموادّ المقترحة على مختلف البلدان. وفي إسرائيل مثلا، أين تمنع المعتقدات تقديماللحم والألبان معا، يتمّ تقديم البيغ ماكBig Mac بدون جبنة. الماكدونالدز الهندية، في ما يخصّهم، تخضع لتحريم لحم البقر عند الهنود وتحريم لحم الخنزير عند المسلمين: يقترحون ماكنوغجت McNugget بالخضر وماهاراجا ماك Maharaja Mac بلحم الغنم.

ولكنّ تبديل التشكيلة الأصليّة للمنتجات لا يتوقّف عند هذا الحدّ: ظهرت في تركيا الياغورثات yogourts؛ في إيطاليا، توجد سلطات من العجائن ويتمّ تقديم إسبيرسّوesperessos؛ في طايوان، في اليابان وفي هونغ كونغ هناك الطاريّاكي بورغر Teriyaki Burgers؛ وهناك الهنبورغر hamburgers المكوّنة من الخضر في الأراضي المنخفضة، الماك سباغيتي McSpaghetti في الفيليبين، ما كلاكس McLaks(قاعدته سمك السلمون) في النورويج وفرانكفورترFrankfurters في ألمانيا، هذا دون ذكر الماكهوف McHuevo في الأوروغواي...يسجّل (واطسون) (Watson) بأنّ ما هو ثابت فعلا في الكرة الأرضية من ماكدونالدز، ليس الهامبورغرhamburgers، البيغ ماك Big Mac كما يتبادر للذهن، لكنّه فقط الفري فرنش French fries، عنصر غذائي لا يمكن أن يوسم بأنّه يانكي yankee.

ويوصل هذا الاستنتاج إلى رفع اللبس عن أطروحة الأمبريالية الثقافية: نفس الشيء، إذا ما كانت ماك دونالدزMcDonald’s تنزع إلى فرض نموذج للاستهلاك مسوّ بين الناس جميعا (انتظر دورك في الرتل مثل الجميع)، وتلاحظ استثناءات، مثلا في ريوديجانيرو، أين يمكن طلب شمبانيا كشراب مرافق للبيغ ماك Big Mac، وهو أمر لا يمكن تصوّره في الولايات المتحدة. بخصوص الاستقبال في المطاعم، إذا ما كانت ابتسامة النادلين في الولايات المتحدة تستدعي الرضا، مثل هذا السلوك في هونغ كونغ أو في كوريا، يثير حذر الزبائن. إنّ الأمر إذن يتعلّق بأوجه مركّزة: يعني ذلك وفق طريقتهم ما يقصدون نقله للمستهلكين.

وعند سرد هذه التناقضات، ينتهي (واطسون) (Watson) إلى أنّه من مساوئ أطروحة الإمبرياليّة الثقافيّة ، بكلّ بساطة وبصفة خالصة، تجاهل التاريخ والخصوصيّات المحلّيّة. فالمستهلكون ليسوا آليات؛ فصيرورة توطين محلاّت الماكدونالدز McDonald’s تتضمّن مرحلتين على الأقلّ: في الأولى هناك إشباع لفضول الاستيراد وتفضيلٍ لخاصية « غرابة exotique » الإنتاج، لكن في مرحلة ثانية، يكون من الضروريّ تكييف العناصر الغذائيّة المقترحة مع الرغبات المحلّيّة اجتنابا لظاهرة الرفض. في الواقع، توطين النموذج هو نتيجة تواطؤ: إذا ما كان قد أدرج تغييرات في الثقافة الأهليّة، لا بدّ أيضا من أن يكون قد عدّل من خصائصه العامّة لكي يكون متماشيا مع العادات والسنن المحلّي.

وتُعَدُّ حالة **ماكدونالدز** McDonald's مثالا دالاّ على أحسن وجه. يمكن من خلالها إدراك حدود رؤية واحديّة للعولمة مُتَصَوَّرَة باعتبارها فرضُ نفس النموذج الاستهلاكيّ على صعيد الكرة الأرضيّة. خطاب الأمبرياليّة العالميّة يفترض سلبيّة كلّيّة للمواطن؛ بينما يبدو الواقع أكثر تعقيدا. يكون الأمر متعلّقا بالأحرى بصيرورات إعادة حيازة متنوّعة تضع في حسابها مختلف التجلّيات. عبر الوسائط يتم نقل صور لها علاقة بمجالات متنوّعة جدّا، من الخيال إلى الاقتصاد، من السياسة إلى الرياضة، والتي هي قصص تنتظر الحيازة الممكنة من قبل هذا الجمهور الافتراضي. لا يشاهد مسلسل أمريكيّ بنفس الطريقة إذا ما كان المشاهد يابانيّا أو إسرائيليّا. تختلف حيازة المنتوجات الثقافيّة حسب السياقات، ويمكنها أن تسهم في دعم الخصوصيّات الفرديّة والهويّات، عكس كلّ شكل من أشكال المجانسة. وهناك أعمال حول تلقّي المنتوجات الثقافيّة الجماهيريّة ذات دلالة بهذا الخصوص، مثل هذه الدراسة حول تلقّي الأفلام الهوليوديّة من قبل مجموعة من السكان الأصليّين الأستراليّين، الوارلبيري Warlpiri[16]. هؤلاء الأخيرون، في قصصهم الخاصّة، يستعملون علاقات القرابة بين الأفراد ويعجبون من عدم التحديد الدقيق لها في مادّة هذه الأفلام: فلا تعرف جدّة روكي ولا من يعتني بزوجة أخيه. في المقابل، اهتمام الوارلبيريWarlpiri بالحوافز الفرديّة للشخصيات ضئيل، ما دام في محيطهم تطغى الطبقة على الفرد. أين ينزعون في تأويلهم لسلوك الشخصيات إلى ردّها إلى ثقافتهم الوطنيّة.

إنّ الاستقبال بعيد عن أن يكون محايدا، فهو يشغّل مرجعيات تاريخية تحكم تأويل الرسالة. وهناك مثال آخر يوضّح أهمّية هذا النشاط التأويلي؛ يتعلق الأمر بتلقّي سلسلة دالاس عن طريق عيّنة تتضمّن مجموعات مختلفة من الإسرائيليّين[17]. بعضهم من أصل روسي، يرون في سلوكات الشخصيات انعكاس لحتمية اجتماعيّة، بينما الإسرائيليّون من أصل مغربي اندهشوا للطابع الفضّ لهذا العالم، إنّه غابة حقيقيّة حيث الأفراد يجب أن يصارعوا من أجل فرض ذواتهم. اهتمّ المتفرّجون العرب بالعلاقات العائليّة والورطات الأخلاقيّة. على عكس الرّوس، ما أدهشهم، هو قدرة الأفراد على أن يتحمّلوا مسؤوليتهم وأن يفرضوا حكمهم الحرّ.

وهكذا، بعيدا عن أن يكون مرادفا للمجانسة، حركيّة الثقافة تضع على المحكّ صيرورات أكثر تعقيدا. ففكرة عالم ثالث يتمثّل بصفة سلبية إنتاجات الغرب باعثة على الهزء. فهي من ناحية تفترض أنّ عمليّة تلقّي صور والتمكن من أساليب استهلاك آتية من الخارج تعني تمثّل القيم الخاصّة بالمجتمع المرسَل لها، بينما ما يُرَى بوضوح أنّ ثقافة الاستقبال تغيّر الصيغة وتعيد تأويل الرسالة حسب سننها.من ناحية أخرى، أطروحة الإمبرياليّة الثقافيّة ترتكز على التعارض بين المركز والأطراف، التي يمكن أن نقيس محدوديّتها، وهي تجهل معطى أساسيّا للعولمة: بعيدا عن أن تكون موجّهة في اتجاه وحيد، حركة تنقّلها موسومة بتنوّع الدفق. ليس من باب الصدفة أن تسلّط هذه المسائل الضوء على الأنثروبولوجيا

الحديثة وإذا ما كانت هذه الأخيرة لا تهتمّ فقط بالدفق الثقافي؛ ولكنّ بالطريقة التي تتكيّف بها المجتمعات مع هذه الوضعيّة أو تقاومها، مع ظواهر تذهب من الحيازة إلى الرفض.

ويتأكّد ذلك بوضوح بخصوص مادّة المطبخ: يماثل توسّع ظاهرة الماكدونالدز عالميّة المطبخ القادم من آسيا، سواء أكان صينيا، طايوانيّا، هنديّا أم كوريّا. يمكن أن نقول نفس الشيء عن الموسيقى: صلصا، ريغي، راي، راب، دامونت لوبيون حتّى البلوز والبوب ميوزيك. نفس الشيء، يمكن التذكير بالأثر الذي أحدثته الصناعة السينيمائيّة للشرق الأقصى. بعبارات أخرى العولمة الثقافية هي قضيّة أكثر تعقيدا ممّا تظهر عليه أوّل وهلة. ما يميّز العصر الحالي، هو التنوع الخارق للعادة للأشكال الثقافية، التي لا تنفصل عن ديناميّة الهجرات، عن وجود جماعات متجانسة عابرة للقارات، عن تكثيف الانتقالات المهنيّة والسياحيّة. وفي هذه الشروط، صورة كرة أرضية في طريقها إلى المجانسة والاستغراب تنقضها الوقائع. ما يرتسم، هو بالأحرى الوجه الجديد لمجتمعات حيث تمزج الحدود بين الأصيل والتقليديّ والدعامات الثقافيّة الآتية من حضارات بعيدة؛ لكنّها تنتقل من أطراف الكرة الأرضيّة إلى أقصاها.

الهوامش

*ترجمة لمبحثين فرعيين من الفصل الأول، مستلّين من كتاب مارك أَبِليسْ، عنوانه "أنثروبولوجية العولمة" العنوان الرئيسي للمقال، من عندنا، واحتفظنا بالعنوانين الفرعيين للمبحثين كما جاءا في النص الأصلي للكتاب والموسوم:

[1] D.Harvey, The Condition of postmodernism, An Esquiry into the Origin of cultural change, Cambridge, Blakuell, 1990.
[2] Ibid., p.147.
[3] J.Baudrillard, Amérique, Paris, Grasset, 1986.
[4] P.Virilo, Esthétique de la disparition, Paris, 1980.

[5] A.Giddens, The Conséquences of Modernity, Cambridge, Polity Press, 1990.

[6] A.Appadurai, Après le colonialisme, Les conséquences culturelles de la globalisation, Paris, Payot, 2001-chapitre I.

[7] Ibid.

[8] C.Lévi-Strauss, « Introduction à l'œuvre de Marcel Mauss », in M.Mauss, Sociologie et Anthropologie, Paris, PUF, 1950.

[9] U.Hannerz, « Scenarios for Peripheral Cultures », in A.D.King (dir.), Culture, Globalization and the World System. Contemporary Conditions for the Reprosentation of identity, Binghamton, Department of art and art History, State University of New York at Binghamton, 1991, p.122.

[10] M.Augé, Non-lieux, Introduction à une anthropologie de la Surmodernité, Paris, Seuil, 1992.

[11] Ibid. p .119.

[12] G.Ritzer, The McDonaldization of society, An Investigation into the Changing Character of Contemporary Social Life, Thousand Oaks, Pineforge Press, 1996.

[13] W.Binjamin, « L'oeuvre d'art à l'époque de sa reproductibilité technique » (1939), Œuvres, t.III, Paris, Gallimard, 2001, p.269-316.

[14] J.I.Watson (dir.), Golden Arches East. McDonald's in East Asia, Stanford University Press, 1997.

[15]B.Barber, Djihad versus Mc World, Paris, Desclée de Browver, 1996.

[16]E.Michaels, Bad Original Art, Tradition, Media, and Technogical Horisons, Minneapolis, University of Minnesota Press, 1994.

[17] T.Liebes, E.Katz, The Export of Mening, Cross-culturel Readings of Dallas,New York, Oxford University Press, 1980.